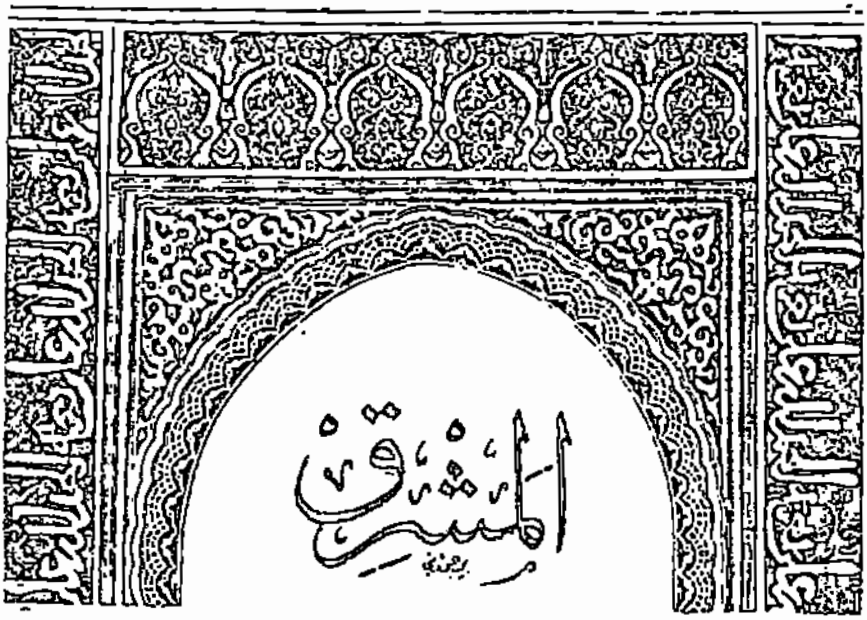

السنة الحادية والثلاثون

اذار ١٩٢٨

المجازفة بالارقام في التاريخ

بقلم حبيب زيات (أقالون : فرنسة)

توطئة

لا يجهل احد ممن عانى درس ماضي الديار الشرقية ما في استطلاع اخبارها من العقبات والآفات ، وما في معارضة روايات النقلة لها من التناقض مرارًا والخلاف ، فضلًا عما هنالك من النقص والتقصير في التدوين والابهام وقلة التحقيق . وقد قُدّر لفن الحديث من تفرغ لنقد رجاله ونبّه على ما فيه بالنسبة اليهم من صحيح ومرجوح ، واختار ما وقع اكثر الاجماع عليه . ولذلك لما اراد الرشيد ضرب عنق احد الزنادقة قال له الزنديق ، فيما رواه ياقوت : « اين انت من الف حديث وضعتها على رسول الله وما فيها حرف نطق به ! » قال الرشيد : « اين انت ، يا عدوّ الله ، من ابي اسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها نخلًا ويخرجانها حرفًا حرفًا ! »[1] . واذا ثبت حقًا ان

١) ارشاد الاريب ١ : ٢٨٥ (طبعة سنة ١٩٠٧) وفي الاصل : « ينحلانها نحلًا » بالحاء.

الحديث نُخل وفُلي تفلية أتت على كل ما وُضع فيه، فلشؤم الطالع لم يقم الى اليوم من ينخل التاريخ ويعارض اقواله المتضاربة وينقدها نقد الصيرفي الجهبذ ويحتفظ بالجيد والراجح . وقد غفل عن هذا الواجب كل من تصدى للتدوين والتأليف حتى القادة من الكتبة المعروفين بالنزعات العصرية . فلا بد للشرقي الراغب في الوقوف على اخبار بلاده ، على وجه التحقيق ، من الاعتماد على ما ثبت منها في كتب النُقاد الغربيين .

واحقّ ما في التاريخ الشرقي بالنقد والتزييف ، واحوجه الى النخل والتصفية، هذه الاحصاءات والارقام التي اغرب المؤرخون بنقلها على علاتها في سياقة الحوادث وتقدير الوقائع ، وارسلوها على عواهنها دون ادنى نظر او استرابة لها . ولم يكتفوا بالتقليد والنسخ . بل تباروا في المبالغة والتهويل حتى ربما بلغت زيادة الواحد على الآخر اضعاف الاضعاف ، بل تجاوز الكيل فيها حدود المئين الى الآلاف . والامثال على هذه المجازفات وافرة جداً ، فلا بد من الاقتصار منها على مختارات يسيرة مما هو اقرب متناولاً واعلق بذهن المطالع . نوردها دون تتبع واستقراء لكل ما فيها من الاقوال المتضاربة مجتزئين منها بما هو ادلّ على المراد ، واوضح لما في طريقة النقل والتقليد التي اتبعها الرواة في الشرق من التهور وشدة الغفلة والتخليط ، كما سبق ونبّه على ذلك حضرة الاب لامنس، حجّة التاريخ الشرقي ، في مقالته « الانتقاد والدروس التاريخية »[1]

بناء مسجد المدينة

اقدم من ذكره من الاخباريين البلاذري في فتوح البلدان . قال بعد ان حكى امر الوليد بن عبد الملك الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة بهدم المسجد وبنائه : « وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط » .[2] دون ان يضبط مقدار المال ولا احمال الفسيفساء . ولكن معاصره

المهلة ، وهو تصحيف .

١) المشرق (٢٠ [١٩٢٢] ص ٦٦٤-٦٧٢)

٢) طبعة مصر سنة ١٩٠١ ، ص ١٢

اليعقوبي[١] ، ومن بعده الطبري[٢]، وابن الاثير[٣]، ومن نقل عنهم جعلوا المال مائة الف مثقال ذهباً ، والصناع مائتين ، واحمال الفسيفساء اربعين . وزعموا ان الوليد استعان بملك الروم لاستحضار كل ذلك من القسطنطينية ، مما ليس هنا محل نقده . وكأن «الاربعون حملاً» لم تكن تكفي مثل مسجد المدينة فزاد عليها الطبري احمالاً اخرى مما امر الوليد بجمعه من الابنية القديمة . واضاف ابن الاثير الى فعلة الشام صناع الروم البيزنطيين . ورأى ابن خلدون ان مائتي صانع من الروم لا يفون بقدر المسجد فنبّه على ان الوليد « استكثر معهم من فعلة الشام »[٤] وخالفهم ياقوت الحموي في احصاء المال فحطّ منه ستين الفاً وجعله اربعين الف دينار فقط[٥]. وجاء صاحب «العيون والحدائق» فرد المائة الف دينار الى نصابها ، وقرن معها حباً بالتسوية وتعظيم شأن المسجد « مائة الف صانع » قال بعث بهم ملك الروم[٦]. فاصبح الثمانون صانعاً من رواية البلاذري مائة الف بفضل المخيّلة الشرقية .

بناء مسجد دمشق

لا نعلم احداً روى حضور صناع الفسيفساء من القسطنطينية لدمشق قبل الحافظ ابن عساكر ، وهو من اهل القرن السادس للهجرة . وعنه نقل العمري والمقريزي والكتبي وسائر المؤرخين . وفي زعمه ان الوليد بعث ايضاً الى ملك الروم ، كما فعل من اجل مسجد المدينة . ولكنه هذه المرة ابرق في خطابه وارعد ، وتوعّد وتهدّد بتخريب الكنائس وتعفية آثار الروم ان لم يرسل الملك الرخام والفسيفساء ومائتي صانع . قال ابن جبير « فامتثل الملك امره مذعناً . » ولكن ابن جبير لما زار دمشق استنزر هذا العدد من الصناع بالنسبة الى

١) تاريخ اليعقوبي (طبعة ليدن) ١ : ٢٤٠
٢) تاريخ الرسل والملوك (طبعة ليدن) ٢ : ١١٦٤
٣) الكامل (طبعة مصر) ٤ : ٢٠٢
٤) العبر ٣ : ٦٠
٥) معجم البلدان (طبعة ليبسيك) ٤ : ٤٦٦
٦) طبعة ليدن ، ٣ : ٥

اعجوبتها الكبرى فرفعه دفعة واحدة الى « اثني عشر الفاً . »[١] وتابعه ابن بطوطة[٢] . واقبل محمد بن ابي بكر السمرقندي فصحح هذا العدد ايضاً في كتابه «تاريخ البلدان» وجعله « اربعين الفاً »[٣] . . . لا غير . وهو في الحقيقة قليل في جنب مائة الف مسجد المدنية .

قتلى اهل معرة النعمان في حصار الصليبيين سنة ٤٩١ للهجرة

حكى « صاحب النجوم الزاهرة » ان في هذه السنة « وردت الاخبار الى بغداد ان الفرنج ملكوا انطاكية وساروا الى معرّة النعمان في الف الف انسان »[٤] . . . (اي مليون) واورد قبلاً عن ابي المظفر سبط ابن الجوزي انهم « نزلوا اليها فقتلوا من اهلها مائة الف انسان وسبوا مثلها . »[٥] فتكون من ثم جملة القتلى والسبي مائتي الف من بلدة نظير المعرة . وليتنا نعلم كم كان ابو المظفر يقدّر سكانها . وذهب ابن الاثير الى انهم « قتلوا ما يزيد على مائة الف »[٦] . واختارت « مجلة المجمع العلمي » بدمشق هذا الاحصاء على ما فيه من الغلو والشطط[٧] . واصرّت عليه حتى بعد ان نبهتها مجلة « المشرق » الى ما فيه من الخطإ والمجازفة[٨] . ولما ظهرت « خطط الشام » ورد فيها هذا التقدير على علّاته بحجة انه وارد في اكثر الروايات (ج ١ : ص٢٨١) ولم تؤيد زعمها باقلّ اسناد او مراجعة للمصادر التي اعتدّت بتسميتها في مفتتح الكتاب . وكان بين هذه المخطوطات التي زعمت انها صدرت عنها كتاب « زبدة الحلب في تاريخ حلب » للصاحب كمال الدين ابن العديم رقم ١٦٦٦ من خزانة باريس . وهو

---

١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٦١

٢) رحلة ابن بطوطة (طبعة باريس) ١ : ١٩٨

٣) وقفنا على هذا المخطوط في خزانة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف

٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (طبعة امريكة) ٢ : ٢١٨

٥) الكتاب نفسه ، ص٢٠٢-٢٠٣

٦) الكامل (طبعة مصر) ١٠ : ١٣٢

٧) السنة الثامنة (١٩٣٣) ص ٢٧٦-٢٧٧

٨) المشرق (٢٠ [١٩٢٢] ٩٧٣ ، و٢٣ [١٩٢٥] ٥٦١)

اجدر ما كان يجب ان يراجع في تحقيق قتلى المعرة. لان مؤلفه كان اعلم اهل زمانه بالتاريخ وايام الناس ، وادراهم بما حدث في جوار بلده من الحروب والوقائع ، لاطلاعه على ما في خزائن حلب واخبار مملكتها ايام وزارته . وكان مقرباً الى ملوكها ، ترسل عنهم سرارًا كثيرة الى الخليفة في بغداد . وقد اثنى عليه ابن شاكر الكتبي ثناء جمًا ، ووصفه بما كان منطوياً عليه « من الديانة الوافرة والتحري في اقواله وافعاله .»[1] ومن طالع كتابه المذكور يعجب من قلة اللغو فيه وكثرة فوائده ، وتعويله في سياقة بعض اخباره والتوثق منها على شهادة بعض الآثار والنقود مما لم يتقدم لاحد قبله ألفة به . ولذلك حرص احد علماء المشرقيات المسيو بلوشه على نقله الى الفرنسية والتعليق عليه . وهذا نص ما كتبه في كلامه على الصليبيين وحصارهم المعرة قال :

« وصاروا الى معرة النعمان الليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة الف وحصروا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين . ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الاحد الرابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين واربعمائة . . . ومالوا على الناس وقتلوا منهم خلقاً وسبوا النساء والصبيان . وقُتل فيها اكثر من عشرين الف رجل وامرأة وصبي . » (ص ١٢٤)

وشتان بين هذه العشرين الفاً وبين مائة الف سبط ابن الجوزي الذي نقل عنه ابن الاثير . وكان مثل الصاحب كمال الدين ابن العديم احق بالاخذ عنه والاستناد اليه من سبط ابن الجوزي الذي نبّه الامام الذهبي على مجازفته في ما انتقده عليه من رواياته ، ومن سائر نظرائه في التهوّر وقلة التحقيق كاحمد بن علي الحريري في كتابه « الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين » (رقم ٢٢٣٤ من خزانة باريس ص ١١٨)

قتلى بغداد في حصار هولاكو سنة ٦٥٦ للهجرة

لم يبقَ احد من الاخباريين لم يكتب شيئاً عن هذه النكبة العظمى التي كانت ايضاً نكبة العلم . وقد تبارت الاقلام والخواطر في تقدير القتلى فيها .

١) العشرون من عيون التواريخ ، من الخزانة التيمورية ، ص ٢٢١

واقل احصاء وقفنا عليه للامام كمال الدين ابن الفوطي ، وهو من اهل بغداد وبالتالي ادرى بما كان في بيته . وهذا نص كلامه قال:

«قيل ان عدة القتلى ببغداد زادت عن ثمان مائة الف نفس عدا من ألقي من الاطفال في الوحول . ومن هلك في القنيّ والآبار وسراديب الموتى جوعاً وخوفاً»[1]

ومعلوم ان مثل هذه التقديرات لا تكون الا على سبيل الحدس والتخمين ، فلا تخلو قط من المبالغة والمجازفة . وقد تتابع المؤرخون على اثر الفوطي في الاحصاء ، والقى كل منهم دلوه في الدلاء ، وجاؤا بكل غريبة وعجيبة . وقد نقل ابن شاكر الكتبي عبارة الفوطي بالحرف الواحد في جزء بخط يده من كتابه « عيون التواريخ » اطلعنا عليه في الخزانة التيمورية . ويظهر انه بعد ان انتهى من هذا النقل وقع له تصنيف آخر فيه تقدير ابلغ ، فعلّق على هامش نسخته بعد قول الفوطي «زادت على ثمانمائة الف» ، بين كلمتي « على » و«ثمانمائة» ، عددي « الف الف » بقلمه ، بحيث صار مجموع القتلى « الف الف وثمانمائة الف » اي بزيادة مليون جملةً واحدة . ثم وجد بعضهم ان هذا القدر لا يكفي لبيان ما حلّ ببغداد بهذه النازلة الكبرى من الويل والبلاء فاضاف نصف مليون آخر واصبحت الجملة ٢,٣٠٠,٠٠٠ قتيل .

واتسع المجال بعد ذلك لسباق الاقلام بين زيادة ونقصان حتى ضاع على السامع الحساب ، وأوصد في وجه التحقيق كل باب . وهذا المثل من ادلّ الامثال على ما في كتب التاريخ والاخبار عندنا من الفوضى والتخليط . فلا بأس ان نورد هنا بعض هذه الاحصاءات الطائشة مع ما بينها من الاختلاف الفاحش والبون الشاسع:

تاريخ ابن كثير رواية الطبراني : وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين . فقيل ثمان ومائة الف . وقيل الف الف وثمانمائة الف . وقيل الفي الف نفس .

(خزانة باريس رقم ١٥١٦ ، ص ٧٥)

---

١) تاريخ بغداد المعروف باسم « الحوادث الجامعة» من الخزانة التيمورية ، رقم ١٣٨٣ ، ص ٢١٨

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي: قال الشيخ شمس الدين الذهبي ..راح تحت السيف أمم لا يحصيهم الا الله تعالى فيقال انهم اكثر من الف الف.
(ترجمة المستعصم ١ : ٣٠٤)

العبر لابن خلدون: يقال ان الذي أحصي فيها من القتلى الف الف وثلثمائة الف.
(٥ : ٥٤٢)

غربال الزمان مختصر من تاريخ عبدالله بن اسعد اليافعي: بلغ عدد القتلى الف الف وثمانمائة الف وكسرًا
(خزانة باريس رقم ٦٧٢٧ ، ص ١٥٥)

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي: وامر هولاكو بعدّ القتلى فبلغت نحو الالفي الف قتيل.
(خزانة باريس رقم ١٧٢٦ ، ص ١٢٧)

تاريخ حوادث الزمان وابنائه للجزري: كان عدد القتلى في هذه الواقعة من الفريقين ما يزيد على الفين الف وثلاثمائة الف انسان ما بين ذلك من نساء ورجال وصغار.
(خزانة باريس رقم ١٦١٦ ، ص ١٣٩)

الجوهر الثمين لابن دقاق: قيل ان عدة من قتل ما يزيد على الفي الف وثلثمائة الف وثلثون انساناً.[1]
(الخزانة التيمورية رقم ١٦٩٢ ، ص ٦٤)

تاريخ الخلفاء والملوك لابن الفرات: قيل ان عدة من قتل ببغداد ما ينيف على الفي الف وثلثمائة الف وثلاثين الف نفس.
(خزانة الفاتيكان رقم ٧٢٦ ، ص ٣٠)

وهلمّ جرًّا من نظائر هذا الخبط والخلط التي لا يكاد يتبرأ منها كتاب في الاخبار والتاريخ.

---

(١) اعجبْ بهذه الـ « ثلاثون انساناً » تأتي في سياق الملايين ومئات الالوف . فلله درّ المؤرخ ما اشدّ تدقيقه ! [المشرق]